الشعر المطعم

للأستاذ كامل السيد شاهين

نريد بالشعر المطعم ذلك الشعر المعرب الذي اختلطت فيه العامية بالعربية ، ونمض مع ذلك شعراً سويا ، يصور الحياة في كل ناحية ، فتجده في السياسة ، كما تجده في الأخلاق ، وتجده في الغزل ، كما تجده في الحكم ، وهو أبداً خفيف الروح ، حلو عذب ، يطربك بهذا الأسلوب اللذيذ ، الذي تجتمع فيه المفارقات الحلوة . فبينما تأخذ سمعك الكلمة العربية الجزلة ، تفجؤك بعدها الكلمة العامية المأنوسة ، فتجد لها ما تجد للنكتة الحارة من وقع ، إذ كانت الكلمة العامية بالنسبة سمعك وهو متهيئ للكلمة العربية ، فتجد النفس من ذلك ما تجد لرؤية الطويل المفرط مع القصير الدحداح ، أو كما تجد لرؤية المرأة متربعة في كرسي القاضي الشرعي ، من حيث الفجاءة وعدم التوقع

وتمام الحلاوة في أنك لا تجد بين العربي والعامي في البيت الواحد خللا أو اضطراباً ، ذلك بأن الكلمة العامية تجيء مصقولة صقلا عربيا ، معربة إعراباً صحيحاً ، كأنما تحدرت إليك من أعرابي سليق

وميزة الشعر المطعم عن الشعر العام أنه عصري متواضع ، يمس الاجتماع الراقي كما يمس الاجتماع الشعبي ، وبذلك يصور لنا ناحية يترفع عنها الشعر العام - ونحن نجني في كثير من الأحيان على التاريخ ، عندما نعتمد على الشعر العام في تصوير حياة المجتمع ، لأنه في برج عال رفيع لا ينحط إلى المستوى الشعبي . فكما كانت الأمثال في القديم أصدق تصويراً للاجتماع العربي من الشعر ، كذلك الشعر المطعم اليوم أصدق تصويرا للاجتماع الحاضر من الشعر العام . ولذا يكون من الخطر إهدار هذا النوع من الشعر المطعم لأنه أمس بالحياة العامة . فهو يصور المجتمع وينقده نقدا لاذعا في خفة ومكاهة

فنحن - مثلا - نجد الفضول والتطفل داء قديماً ، ولكن الشعر العام إذا تناوله لم يبلغ فيه من الصدق وتصوير الواقع ما يبلغ الشعر المطعم . فهذا شاعر يقول في وصف ثقيل : -

بارد لو يخش في النار تاقي الناس في النار كلها بردانه
كلما شاف صاحبين يقولا ن كلاماً دغري يمد ودانه
ويطيل الحديث آه يانا ياعلبي ويا وعدي من لته آه يانه
وتراه قدامنا مادحا فينا ويانا يذمنا من ورانه
يدعي أنه ابن ناس ذوات أورثوه في زعمه أطيانه
وهو والله يا عزيزي أبوه عربجي وأمه بلانه !

ثم اسمع هذا الختام المحكم القوي :

أيها الناس بعضكم عسل صا ف لذيذ ، وبعضكم ديانه !

فكم من الأدباء عرض لوصف الثقلاء ، ولكنهم لم يصوروا هذا التصوير البديع الصادق الذي يستمد قوته من صدقه وإبرازه الوقائع كما هي

والناس يصرخون اليوم من أجرة الأطباء ، ولكن الشعراء لا يتناولون هذه الناحية من اجتماع الأمة ، ويتناولها الشعر المطعم فيقول الشاعر معارضا قصيدة أبي فراس : -

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر
أما للهوى نهي عليك ولا أمر
نعم أنا يردان ، وعندي كحة
ولكن مثلي لا يطيب له صدر
فهل علم الدكتور أني بكحتي
أمزق أحشائي الفداة ولا فخر
وقال المعرجي هل معاك فزيتة
تحش بها ، أو ما معا كشي فتنجر
وقال أصيحابي الدخول أو الردى
فقلت هما أمران : أحلاهما مر
ألم تعلموا أني فقير وأنه
إذا شافني خمسون قرشا له أجر
بنصف جنيه نظرة فابتسامة
فقصقوصة من دفتر فوقها حبر !

ولكن إذا حم القضاء على امرئ

فليس له بر يقيه ولا بحر

فاضطرار المريض ، وغلظة المرض ، وجشع الطبيب ، مصورة ههنا أروع التصوير وأبرعه

وكثير من الأغنياء لا يسهم في المنافع العامة للشعب ، ولذا تجد المجالس الشعبية تلزمهم بقارض نقدها ، ويسجل ذلك الشعر المطعم :

نعم لك مال ، غير أنك جلدة

فلست بمسدود ولا متسدد

إذا لم تكن - يا باشا - صاحب نخوة

تخمسون طظا فيك م اليوم للغد

وتجد المجالس الشعبية تتناول عباد الظاهر هازئة ساخرة محقرة ، وترى هذا في الشعر المطعم :

وكم من فتى تلقاه تحسب أنه أمير لتزويق به وتبغدد

مرتبه في الشهر ليس يزيد عن

جنيهين ، وان الكباب عامل أفندى

ولا يقف الشعر المطعم عند تصوير حياة الشعب واجتماعه الخاص ، بل يدس أنفه في السياسة العامة ، ولكن روحه الشعبية الجمهورية العاطفية . فيهيب بالأغنياء لإمداد فلسطين قبل طغيان اليهود فيقول :

ومن بعلم بما هم فيه يصدق بخضته ، ومنه يطق عرق

فأين الراحون، ألم تشوفوا ألستم تسمعون وذاك زعق

أنا كل كستليتة بصلصا ونكر ثم بعد السكر عشق

وبيت الجار مهدوم عليه وممدته بها للجوع حرق

أغيثوهم وإلا قيل عنا مجانين رءوسهم تلق

متبقوش كدا ، عيب عليكم

إذا ما كنتوش غجرا حتبقوا !

كما يدس أنفه في أمر التعليم ، فالمذهب الشعبي في التربية يوجب التأديب بالعصا ، وقد علمنا أن بعض الماهد في إنجلترا تحبذ الضرب في التعليم ، وإن كان المربون لا يزالون ينفرون منه . ولما كان الشعر المطعم تعبيرا عن رأى الشعب ، فقد جاء منتصرا محبذا للضرب

وأنا امرؤ قد جئت مصر ولم أكن إلا غلاما حافيا فلاحا

قد دخلت مدرسة وكنت مسفرطا متقطعا متشعبطا قراحا

متشابطا متلابطا متخانقا متصارعا متشاتما رداحا

وإذا اهتديت رأيتني متمألتا متمسخرا ، متفلحسا مزاحا

ولا شك أن هذه (الحيثيات) لابد أن تسوق إليه العصا سوقا ، ولذا يقول : —

لكن خوجاتي على توزوزوا وعلى نفوخي وهات حتى راحا

فعلمت أن اللعب ليس وراءه إلا دمى ، تحت العصاية ساحا

فجعلت أقضي الوقت بين قراءة وكتابة متألما وحواحا

ونجحت ثم صبحت فيكم راجلا ذا شنلة ، لا عاطلا مشكاحا

إخص على زمن يحرم أهله ضرب الصبي ويشربون الراحا

والله لولا الضرب في التعليم ما نفع البليد ولا أصاب نجاحا

وليس من شك أن المجالس الشعبية كثيرا ما تدور حول لذائذ الأطعمة وطيباتها ، والشعر المطعم يتكلم بلسان هذه المجالس فيقول :

إرحل عن الدار التي أصحابها لا يطعمونك من لذيذ المأكل

بؤس الطعام الفول وهو مدمس مهما تحاول بلعه لا ينزل !

زرنا نجد في بيتنا ما تشتهي من كل مطبوخ وكل مخلل

عملت لنا بالأمس عبلة كفتة طباخ باشا مثلها لم يعمل

وكباب عبلة ، لا نقل حاتي ولا ماتي ، وكل منه ثلاثة أرطل

إن الكنافة لو تمثل شخصها بين الصنوف تشتها في الأول

وإذا سلاطين الخشاف تجهزت فاشرلها الأكام واشرب وانجل

والشاعر لا ينسى نفسه في زحمة الكباب والكنافة والخشاف ، ولكن يذكر أنه لابد من العزة والكرامة حتى يطيب الطعام فيقول :

لا تسقني مرق الفراخ بذلة بل فاسقني بالعز ماء الفلفل

مرق الفراخ بذلة لا أشتهي والطرشي في عز أراه يلذ لي !

ولكن . كيف يتناول الشعر المطعم فن الغزل ، والحب يهز قلوب العامة والدهماء على السواء ! إذا بحثنا نجد الغزل في

هذا الشعر غزلا يناسب الطبقة الدنيا ، وعثلها أروع التمثيل ، فلكل طبقة أسلوبها فى طريق المغازلة ، عملية وكلامية. وفى الطبقة الشعبية نجد من النساء من تحب من زوجها أن يضربها منذ الليالى الأولى ، وإلا لم يكن شهما ، فهى تشتم زوجها وتعربد عليه ، لتستثيره ، وتخبر مبلغ رجولته

بكرت تبستفنى وتلمن لى أبى فأجبتها حالا بضرب الشيشب
مهمولة وتريد منى طبلة ياموت خدها من أمامى،والنبى
يابنت بنت الكلب،مادخلى أنا البيت عندك عمرى أو خربى

وبينما نجد هذا النوع من النساء فى الطبقة الدنيا ، نجد نوعا آخر يحب الدلال ، ويحب المحاسنة ، ولكن مادلال العامة وكيف يكون . هذا شاعر يصور ضربا منه فيقول :

قلت ـ يامنية الفؤاد اركبينى وامسكى شال عمتى كالعنان آلا

ونجد أسلوب الشعر العامى فى الغزل مأخوذا من الحى الشعبى لا يتطفل على الأحياء الراقية ، فهذا شاعر يشبه قلبه بالقبقاب ، يوما فى رجل هذه ، ويوما فى رجل تلك :

ياقلب كالقبقاب حيره الجا ل ، فتارة تدنى،وأخرى تزجر
صبحا برجل فهيمة وعشية فى رجل سلمى،والزمان تجرجر

وهذا آخر يسمى محبوبته بأسماء بلدية مثل ستيتة ، وهنومة وكعب الخير فيقول :

ستيتة لاتكن تجوالك عذلى فإن بهجتى حللا بتفلى
وبين أضالعى وابور جاز وإبرته جفاك لشمعل
حرام أن أعيش بلا وبور وفى جنبى (بريمس) منه أصلى

ثم يذكر الشاعر دلال محبوبته فيزعم أنها لجهلها بالغزل والدل ، لا تميل كما يميل البان ، ولكن تميل كما تميل الحائط ، ولا ترنو كما يرنو الغزال، ولكن ترنو كما يرنو الأعمى، ولاتلفت تلفت الظبى ، ولكن تجفل إجفال البغل ـ وأن غزلها أن تصفعه على قفاه بكف كالرحا . كما تشد شعره الذى يشبه (جزة الخروف) ثم تمضى فى تقليته ، واستخراج هوامه ، فيقول : —

فمالت حائطا ، ورنت كأعمى إلى ، وأجفلت إجفال بغل
وصافح كفها الرحوى قفايا وشدت جزتى ومضت تقلى
فلا والله ما حربَ البسوس بأهول من تصيدها لقملى

ولو تقمنا ذلك لعيبنا ، ولأعيبنا الفراء ، وفى ذلك لمن شاء بلاغ

وبعد : فإنما إذا كنا نبكى اليوم لضياع الأزجال الأندلسية الذى فوت علينا معرفة عامية الأندلس ، ولو كشفت الآن لكانت أثرا تاريخيا جليلا — إذا كنا نبكى لضياع هذا التراث ، فإننا أجدر بالبكاء إذا ما ضيعت هذه الثروة التى لم يعن بجمعها أحد ، ولم يسرع لتقعيد قواعدها أحد ، إلا شيئا يسيرا ذكره المرحوم حسين شفيق المصرى لا يشفى ظمأ . ولم يعن أحد باستخراج ما تحويه من أساليب و كنايات تعد من أبرع وأروع ما تحوى بلاغات الأمم مما يصلح أن يكون رسالة شائقة فريدة ، وحسبنا أننا فتحنا الباب لمن شاء أن يسلك أو يدرس

كامل السيد شاهين
مبعوث الأزهر للسودان

ظهرت الطبعة الثانية للرحلات الأولى والطبعة الأولى
للرحلات الثانية من كتاب

رحلات

لصاحب العزة الدكتور عبد الوهاب عزام بك
سفير مصر فى الباكستان

ثمن كل مجلد ثلاثون قرشا عدا أجرة البريد
والمجلدان يطلبان من مجلة الرسالة ومن المكتبات الشهيرة